اغتنام الأوقات فيما يرفع الدرجات

الشيخ عبد السلام بن سالم السحيمي

الحمد لله رب العالمين، خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور، وجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ووفق من شاء لاغتنام أوقاتها قبل فواتها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق السماوات والأرض بالحق، يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، ألا هو العزيز الغفار.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، القائل: "بادروا بالأعمال". صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا..

أما بعد:

فإن ديننا الإسلامي قد اهتم بجميع نواحي الحياة أيما اهتمام، ونظم شؤونها أدق تنظيم، فلم يتوفّ الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى أكمل به الدين، وأتم به النعمة، وأقام به الحجة، وبين المحجة، فأنزل عليه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} (المائدة:٣). فتركنا صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وإن مما اهتم به ديننا الإسلامي، واعتنى به غاية العناية: حياة الإنسان، واستغلال الوقت قبل فوات الأوان.

وللوقت شأن عظيم، وقدر جليل، وهو آية من آيات الله: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} (فصلت:٣٧).

{اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} (إبراهيم: ٣٢ – ٣٤).

وقال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} (الإسراء:١٢).

فالوقت هو الحياة، والحياة هي ميدان العمل ومضمار السباق إلى الفوز برضا الرب الكريم.

والوقت هو حياة الإنسان، يتقلب فيه من حال إلى حال، وهو ظرف الطاعات، وزمن القربات: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} (الروم:٥٤).

ويقول تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (غافر:٦٧)

ولعظم شأن الزمن أقسم الله به جملة وتفصيلا، وقسمه عز وجل دال على عظم المقسم به، وعظم المقسم عليه، فأقسم بجملة الزمن، فقال: {وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (العصر: ١ – ٣).

فأقسم تعالى بالعصر الذي هو الزمن لما فيه من الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر.

وكما أقسم بجملة الدهر، فقد أقسم بأجزاء منه في مطالع عديدة، فأقسم بالفجر وليال عشر، وأقسم بالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، وأقسم بالضحى والليل إذا سجى.

وقسمه سبحانه بأجزاء الزمن تلك لفت للأنظار نحوها، لعظيم دلالتها عليه، وجليل ما اشتملت عليه من منافع وآثار.

وقد أخبر الله عز وجل أنه جعل الليل والنهار ظرفا للعبادة، فقال: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} (الفرقان: ٦٢).

ففرض في اليوم والليلة خمس صلوات، وشرع النوافل فيما بين ذلك من الأوقات غير الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، وشرع ذكره بالتهليل والتسبيح والتكبير والتحميد في جميع الساعات، وخص أدبار الصلوات – الصباح والمساء – بفضيلة الذكر فيها، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} (الأحزاب: ٤١- ٤٢).

وقال: {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} (الروم:١٧)

وقال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} (الطور: ٤٩).

وفرض صيام شهر في السنة، وشرع صياما تطوعا أسبوعيا وهو صوم الإثنين والخميس وصوما شهريا، وهو صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وخصص بالصيام أياما أخر في العام.

وأما العبادة المالية فقد أثنى سبحانه على الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار، فقال: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ٢٧٤).

وفرض الحج مرة واحدة على المستطيع، وما زاد فهو تطوع.

ومن هذا العرض السريع ندرك أن عمر المؤمن كله مستغرق بالأعمال الصالحة، وحتى الفترات التي يشتغل فيها بأمور معاشه وطلب رزقه، بل والتي يرتاح فيها للنوم، أو يتفرغ للأكل والشرب ومؤانسة الإخوان، إذا نوى بها طاعة الله مع مشروعية العمل أو إباحته، أو نوى بها التقوي على طاعة الله، صارت طاعة يؤجر عليها، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من أمسى كالا على ولده – أي: تعب في تحصيل الرزق الحلال لهم – أمسى مغفورا له".

وقد ورد عن بعض السلف أنه كان يقول: "والله إني لأحتسب النومة أنامها في سبيل الله". وهذا إذا نوى بها التقوي على الطاعات والأعمال الصالحة مع عدم تفويت شيء من الواجبات.

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن الوقت نفيس، وأنه لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، منها: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم لن تزول قدما العبد في ذلك الموقف الصعب حتى يحاسبه عن مدة أجله بعامة، وعما فعل بزمانه وقت شبابه بخاصة، وهو تخصيص بعد تعميم، إذ إن أكثر العطاء في وقت الشباب، فهو وقت الفتوة والجد والعزيمة والتأسيس والبناء، وهو أوسط العمر وزمن القوة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة.

ولقد ضرب سلفنا الصالح ورعيلنا الأول أروع الأمثلة، وسجلوا بأقوالهم المأثورة أروع ما يدل على استغلالهم لكل لحظة من لحظات حياتهم وملئها بالخير، سواء في ذلك عالمهم وعابدهم، فقد كانوا يسابقون الساعات، ويبادرون اللحظات، ضنا منهم بالوقت، وحرصا على ألا يذهب هدرا، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزدد فيه عملي".

وقال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز – رحمه الله - : "إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما".

يعني: يعملان فيك بإضعاف قواك العقلية والبدنية.

فبمرور الأيام والليالي وكر الجديدين عليك تخور قواك، وينحني ظهرك، وتتقاصر خطاك، وتعجز عنك رجلاك، ويقرب بصرك، ويضعف سمعك، وتشتت أسنانك، ويضعف نطقك وبيانك، ويكل ذهنك، ويضعف حفظك، فالليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما بالأعمال الصالحة.

وعن الحسن البصري – رحمه الله – أنه قال: "يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك".

وقال رحمه الله: "أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصا على دراهمكم ودنانيركم".

وهذا لأنهم علموا نفاسة الوقت وقيمته، وأنهم مسؤولون عنه بين يدي الله عز وجل، فعملوا فيه فربحوا، ولم يغبنوا فيمن غبن في أيامه ولياليه لضياعها عليه سدى بين لهو وغفلة.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه مغبون في هذه النعمة كثير من الناس، فقال: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ".

فإذا كان الوقت بهذه الأهمية، وإذا لم يشغله الإنسان في الخير خسر خسارة لا تعوض، فإنه يجب على الفطن اللبيب العاقل الأريب والناصح لنفسه، المتقي لربه، المحاسب لنفسه قبل يوم الحساب: أن يحافظ عليه أكثر مما يحافظ على الذهب والفضة، فلا يصرف منه شيئا إلا فيما يفيده، وإذا كان الذي يبذر ماله ويضيعه فيما لا يفيده يعتبر سفيها يحجر عليه، فإن الذي يضيع وقته أعظم سفها، لأن المال إن ارتحل عنك يوما حل في آخر، أما الزمن فإن كل لحظة تمر بك لا تعود إلى يوم القيامة.

فبادروا – عباد الله – بالخيرات، واستغلوا الأوقات واللحظات، فإن كل يوم يمضي يقربكم من لقاء الله عزوجل، ويباعدكم من الدنيا، بادروا بالأعمال، واغتنموا ساعات العمر قبل الارتحال.

واعلم أخي المسلم أنك لا تدري متى تتوقف عجلة حياتك، وتطوى صحيفة أعمالك، ويلغى تعدادك من أهل الدنيا، وتعد من أهل الآخرة، فكن على استعداد في

كل لحظة من لحظات عمرك، غير متقال للحظة منها، لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم: "إذا قامت القيامة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها".

عباد الله، قد يخيل لبعض الناس – وخصوصا الشباب – أن الأيام ستفرغ له في المستقبل من الشواغل، وتصفو من المكدرات والعوائق، وأنه سيكون أفرغ منه في الماضي أيام الشباب، فاحذر أخي هذا الخيال والتوهم، فإن الواقع المشاهد على العكس من هذا.

فإنك كلما كبرت سنك كبرت مسؤولياتك، وزادت علاقاتك، وضاقت أوقاتك، ونقصت طاقاتك.

فالوقت في الكبر أضيق، والجسم فيه أضعف، والصحة فيه أقل، والنشاط فيه أدنى، والواجبات والشواغل فيه أكثر وأشد.

فبادر ساعات العمر فهي سانحة، ولا تتعلق بالغائب المجهول، فكل ظرف مملوء بشواغله وأعماله ومفاجآته.

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب خليق كالجديد من الثياب

فالعاقل الكيس الموفق من يملأ كل لحظة من لحظات عمره بفائدة علمية أو عملية، وقد كره عمر رضي الله عنه البطالة والكسل وإضاعة الوقت سدى، فقال: "إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللا – أي: فارغا – لا في عمل دنيا، ولا في عمل آخرة".

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المنافقون: ٩ – ١١).

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

❖❖❖